# ذاكرة العرب

مجلة ربع سنوية - العدد الثاني - إبريل ٢٠١٩

# الفهرس


| | |
|---|---|
| تقديم | ٣ |
| سجلماسة... ١٣٠٠ عام على تأسيس أول حاضرة إسلامية بالمغرب الأقصى | ٤ |
| مدينة زبيد اليمنية وتحصيناتها | ١٦ |
| البيوت الدمشقية... كنوز معمارية فنية وأسرار تاريخية | ٣٠ |
| خان أسعد باشا العظم في مدينة دمشق | ٥٠ |
| زينة الرأس للمرأة التونسية... تراث ثقافي وحضاري | ٦٤ |
| سلامات من يافا وحيفا والناصرة والقدس الشريف | ٨٨ |
| السنع وأصوله... الأقوال الشعبية المتداولة في المناسبات الاجتماعية في دول الخليج العربي | ٩٨ |
| تاريخ غزة في نهاية العصر العثماني... قراءة من خلال شواهد القبور | ١١٤ |
| ملحمة السيرة الهلالية | ١٢٨ |
| إطلالة على البن اليمني | ١٣٠ |
| قراءة لوثيقة نادرة تقنن بيع الخيل في عهد الملك عبد العزيز | ١٣٤ |
| هرابات المياه النبطية في سيناء | ١٤٢ |
| **ملف خاص: ما قبل التاريخ في الوطن العربي** | |
| - آثار ما قبل التاريخ في العالم العربي والإرهاصات الأولى للحضارة | ١٥٠ |
| - الفن الصخري الموريتاني | ١٦٢ |
| - الملامح الثقافية لما قبل التاريخ في اليمن | ١٧٤ |
| - تاسيلي... تراث عربي مجهول | ١٧٨ |

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

SPecial Projects
إدارة المشروعات الخاصة

**المشرف العام**
مُصْطَفى الفِقي
مدير مكتبة الإسكندرية

**رئيس التحرير**
خَالِد عَزَب
khaled.azab@bibalex.org

**سكرتير التحرير**
سُوزَان عَابِد
susan.abed@bibalex.org

**المراجعة والتصحيح اللغوي**
فاطِمَة نَبيه
مُحَمَّد حَسَن

**التصميم الجرافيكي والخطوط**
الحَسَن عِصَام
خَالِد مُصْطَفى

**الإسكندرية، إبريل ٢٠١٩**

طُبعت برعاية
OFID
THE OPEC FUND FOR INTERNATIONAL DEVELOPMENT
Uniting against Poverty

# البيوت الأثرية

## كنوز معمارية فنية وأسرار تاريخية

بقلم: الدكتور أحمد أمين

قسم الحرملك بقصر العظم بدمشق.

دِمَشْق، بكسر الدال وفتح الميم وسكون الشين، هي عاصمة القطر العربي السوري، ومركز محافظة. ودمشق أشهر أسماء هذه المدينة، بينما نعتت وعرفت بأسماء أخرى عديدة لعل أشهرها دمشق الشام، والشام، والفيحاء، والعذراء، وجيرون، وذات العماد، والغوطة، وفسطاط المسلمين.

تقع مدينة دمشق عند التقاء خط طول ٣٦,١٨ شرقًا ودرجة عرض ٣٣,٣٣ شمالاً، على الطرف الغربي من حوض واسعة إلى الشمال من هضبة حوران تعرف بحوض دمشق. يطل على دمشق من الشمال جبل قاسيون، ويشرف عليها من الجنوب الجبل الأسود وجبل المانع، ومن الغرب جبل الشيخ المعروف بجبل الثلج عند قدماء العرب، وشرقها مفتوح، ومن ثم فهي سهلية جبلية. يتراوح ارتفاع دمشق عن سطح البحر بين ٦٧٥ مترًا عند ساحة باب توما، و٩٠٠ متر في حي المهاجرين.

وقد اقترن ذكر دمشق بأهم معالمها الجغرافية أي نهر بردى والغوطة. نهر بردى أي نهر الذهب، وكان ينقسم إلى أقسام تسقي دمشق داخل البلد؛ وهي بردى (النهر الأصلي)، وقنوات، وبانياس، ويزيد، وتورا. أضفى نهر بردى على دمشق الحياة المتدفقة؛ فحفرت الأنفاق وشقت الأقنية في الصخور، وأجرى المياه إلى دمشق، فوزعت على دورها وحماماتها ومساجدها وبساتين غوطتها، وبفضله أضحت دمشق جنة خضراء، إلا أن نهر بردى كان عرضة للجفاف في بعض الفترات نتيجة ندرة سقوط الأمطار.

أما الغوطة فهي من الغيط وهو الوادي الفسيح، أو البستان المزدهر، وهي مجمع النبات، وكذلك هي الجزء المطمئن من الأرض. والغوطة بساتين تحيط بدمشق من جميع جوانبها. ويصفها النويري في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي؛ بكلمات تأخذ الألباب فيقول: «هي شرك العقول وقيد الخواطر، وعقال النفوس ونزهة النواظر، خلخلت الأنهار أسوق أشجارها، وجاست المياه خلال ديارها».

## دمشق العثمانية

صارت دمشق ولاية عثمانية شأنها في ذلك شأن بقية بلاد الشام ومصر إثر هزيمة المماليك في معركة مرج دابق شمالي حلب ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م. وقسمت بلاد الشام إلى مناطق (سناجق أو ألوية) وفقًا لاعتبارات عدة سياسية وجغرافية، فصارت دمشق مركزًا لإحدى هذه الألوية العثمانية. وقام نظام الولايات العثمانية على مبدأ التكليف بالولاية؛ حيث يتم تعيين الوالي أو الباشا في منصبه مزودًا بالأوامر السلطانية والدعم المالي والعسكري اللازمين لتنفيذها.

وفي تلك الفترة كان المجتمع الدمشقي يتكون من هيئتين كبيرتين منفصلتين فصلًا ظاهرًا: الأولى هي هيئة الحكام، أما الثانية فتمثل المحكومين. وكان ثمة هيئة ثالثة تمثل الصلة بين الهيئتين والتي تشمل العلماء وأرباب الطرق والقاضي والمفتي ونقيب الأشراف. ورغم أن الباشا أو الوالي كان يمثل رأس السلطة باعتباره ممثل السلطان في ولايته، فقد كانت توجد مناصب أخرى تقاسمه السلطة متمثلة في الدفتردار، والقاضي، وضباط الأوجاقات؛ وهو ما يجعل سلطة الوالي غير مطلقة.

وينقسم تاريخ دمشق - والشام بصفة عامة - خلال الحكم العثماني والممتد إلى الحرب العالمية الأولى إلى ثلاث فترات كما يلي:

- الفترة الأول: العهد العثماني الأول ٩٢٢-١٢٤٦هـ/ ١٥١٦-١٨٣١م أي منذ دخول السلطان سليم بلاد الشام إلى دخول القوات المصرية هذه الأقطار وضمها إلى مصر إبان حكم محمد علي باشا.
- الفترة الثانية: عهد الحكم المصري في الشام ١٢٤٦-١٢٥٦هـ/ ١٨٣١-١٨٤٠م.

قاعة بقسم الحرملك ببيت نظام بدمشق، أرضية الدورقاعة.

- الفترة الثالثة: عهد التنظيمات وما يلحق به من حكم السلطان عبد الحميد، ثم حكم الاتحاديين إلى الحرب العالمية الأولى وانهيار الإمبراطورية العثمانية ١٢٥٦-١٣٣٦هـ/ ١٨٤٠-١٩١٨م.

وقد شهدت دمشق العثمانية فترات ضعف وقوة بحسب عوامل عدة؛ أهمها: شخصية الوالي وقوته وعلاقته بالباب العالي، وكذلك فترة حكمه، بالإضافة إلى السياقات التاريخية المؤثرة في مدى استقرار وأمن ورخاء البلاد. فنجد على سبيل المثال أن دمشق إبان القرن الثامن عشر تحت الحكم العثماني حكمها ستة وأربعون واليًا خلال ثلاث وخمسين فترة ولاية؛ حيث حكم ستة ولاة فترتين وحكم والٍ واحد ثلاث فترات، وحكم سبعة ولاة فقط مدة ستين عامًا - أربعة منهم من آل العظم حكموا حوالي ثمانية وثلاثين عامًا - وفي المقابل نجد تسعة وثلاثين واليًا حكموا خلال أربعين عامًا، أي بمعدل والٍ جديد لكل عام! ومنهم من تولى ثمانية أيام فقط! ولا شك أن كثرة عدد الولاة خلال فترة قصيرة على هذا النحو كان له تأثير سلبي تمثل في عدم استقرار وخلخلة في الحكم من جهة، وحرص الولاة على جمع أكبر قدر من الأموال على حساب أهل دمشق. وكان العلماء يتصدون للظلم والدفاع عن العامة، وكان الولاة يحاربون العلماء لذلك، فوصل الأمر إلى حد الاعتقال والنفي.

## البيوت الدمشقية ضحية العوامل الطبيعية والبشرية

طبيعة العمارة السكنية قابلة بشكل أكبر من غيرها - العمارة الدينية والحربية على سبيل المثال - خاصة بعد عمليات توريث متتالية؛ إلى عملية الإحلال وإعادة البناء؛ وذلك لارتفاع أثمان الأراضي، والرغبة في التجديد والتقسيم مما يقودها بصورة أو بأخرى إلى تغيير شكل البناء الأول. كل هذا أدى إلى وجود بيوت قائمة غير معروف على وجه الدقة تاريخها؛ مثل بيت نظام والسباعي. وفي المقابل نجد بالوثائق والمصادر التاريخية وكتب الرحالة وصفًا لبيوت عديدة منسوبة إلى أشخاص معروفين وليس لهذه البيوت وجود الآن.

وقد تهدمت كذلك كثير من البيوت الدمشقية جراء الحروب والصراعات والفتن وما أكثرها في الماضي، وللأسف الشديد هي تعاني الأمر نفسه الآن نتيجة الأحداث الدامية التي تشهدها

قسم السلاملك بقصر العظم بدمشق.

سوريا في السنوات الأخيرة. ومنها أن القصف الفرنسي على دمشق عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م دمّر وهدم بيوتًا كثيرة، وقد تهدمت جراء ذلك أيضًا أجزاء كبيرة من قصر العظم؛ أشهر البيوت والقصور الدمشقية الباقية.

والسواد الأعظم من بيوت مدينة دمشق القديمة هي بيوت الفقراء والعامة، وتلك كانت مبنية من الدك واللبن، ولم تصمد الأبنية بهذه المواد اللينة لعوامل الطبيعة في دمشق؛ حيث الأمطار الغزيرة والثلوج والعواصف فكانت عرضة للانهيار. وتشترك البيوت جيدة البناء الخاصة بالأغنياء والأمراء مع بيوت الفقراء سالفة الذكر في تفاعلها مع عامل آخر من الطبيعة وهو الزلازل؛ حيث شهدت دمشق العثمانية في تاريخها عددًا من الزلازل؛ منها على سبيل المثال زلزال عام ١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م. ونجد أثر ذاك الزلزال في وصف الغزي: «تخلعت السقوف وتشققت الجدران وهدمت في الشام بيوت لا تحصى...، وخرب أكثر دور دمشق ووقعت تلك الليلة سقوف وبيوت لا تحصى».

## البيت الدمشقي... تباين الخارج والداخل

### «روائع معمارية وفنية مخبأة داخل أصداف طينية»

إن واجهات البيت الدمشقي من الخارج فقيرة المظهر؛ فهي مجرد جدران جرداء صماء ليس بها فتحات سوى مدخل البيت البسيط المتواضع، وبعض النوافذ العالية الضيقة إن وجدت. ويمثل فقر الواجهات الخارجية إضافة إلى أزقة (الشوارع الضيقة المتعرجة) المدينة القديمة والتي كانت قديمًا تمتلئ – خاصة في فصل الشتاء – بالماء الآسن والطين والوحل تباينًا صارخًا مع داخل البيت الدمشقي.

هذا التباين جذب انتباه كل مَن زار دمشق من الرحالة والجغرافيين، فيذكر جون جرين (زار دمشق في عام ١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م): «تجاه الخارج لا تجد سوى جدران عالية بها بعض النوافذ ولكن في الداخل فقد اعتنوا بزخرفته بزخارف شديدة الثراء فضلًا عن الرسوم والتذهيب». وتعلق كِنان في *Damascus: Hidden Treasures* على وصف جون منتصف القرن الثامن عشر الميلادي بأنه لا يزال منطبقًا على هذه البيوت حتى اليوم. وتستطرد كِنان معلقة: «عندما تتجول خلال الأزقة في المدينة القديمة – دمشق – تجد الجدران الصماء على جانبيك، ولا توجد أي دلالة تخبرك بأنك تمر على قصور ألف ليلة وليلة والتي تحوي أروع الزخارف بداخلها، ولا يستطيع مخرج سينمائي أن يحقق الانطباع البصري الأكثر قوة عندما تنبثق فجأة أضواء ساطعة بعد الشوارع المظلمة من خلال الأفنية في البيوت بنوافيرها وأشجارها وطيورها المغردة وأرضياتها الرخامية وزخارفها الثرية».

فناء قسم السلاملك ببيت السباعي بدمشق.

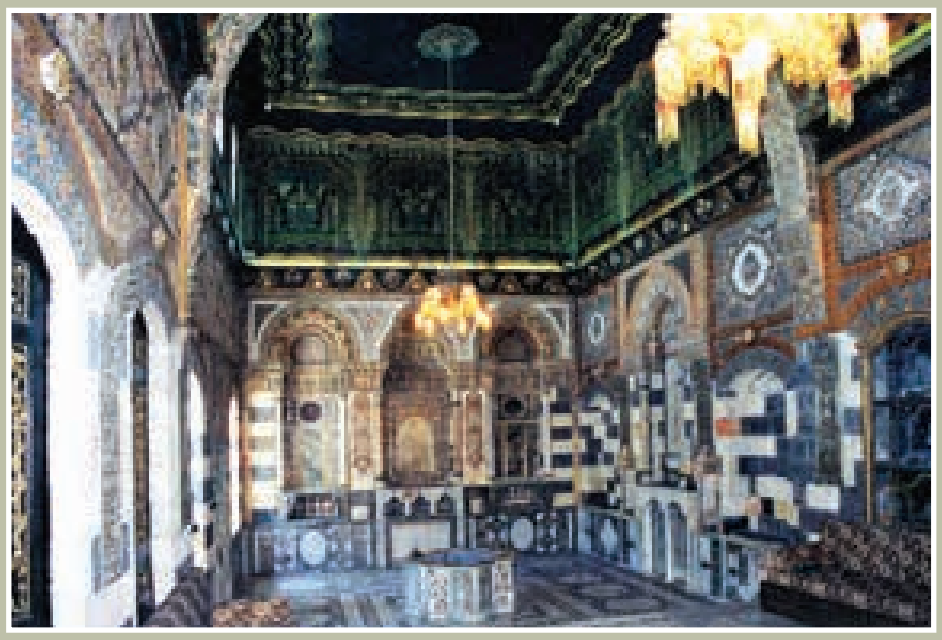

قاعة بقسم الحرملك ببيت نظام بدمشق باتجاه الدورقاعة.

سقف دورقاعة القاعة الكبرى ببيت جبري بدمشق.

قسم الحرملك بقصر العظم بدمشق – قاعة.

وقد أدهش هذا التباين بين خارج وداخل البيت الدمشقي الرحالة الفرنسي ألفونس لامارتين (١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م)؛ فكتب معلقًا: «دخلت أزقة مظلمة قذرة ومتعرجة في الحي الأرمني التي تشبه أكثر قرانا حرمانًا، فالبيوت مبنية من الطين، جدرانها مثقبة من الخارج. ونادرًا ما ترى فيها النوافذ، وإذا ما وجدت فهي صغيرة ومدهونة بلون أحمر تحميها شبك ومصبعات خشبية. أما الأبواب الخارجية فتشبه أبواب الإصطبلات وترى بالقرب منها أكوام النفايات وبرك الماء الآسن. وإذا ما تجاوزت الباب إلى داخل البيت مررت بدهليز مظلم يفضي بك إلى داخل البيت، وهنا، تُفاجأ بصورة تختلف كليًّا عما شاهدته في الخارج؛ حيث الأناقة والنظافة والثراء، فالفناء مفروش بالبلاط تحيط به حجرات عديدة...».

ولعل ما كتبه جورج كورتيس الأمريكي (زار دمشق في ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م) يعكس قوة التأثير البصري والنفسي لهذا التحول من الخارج إلى داخل البيت الدمشقي، فيقول: «هل شعرت بخيبة الأمل وأنت تجوب شوارع دمشق بين الجدران الصماء؟ هل أصابتك رجفة خشية أن تكون دمشق الحلم ضاعت في دمشق ذاتها؟ انتظر! قليل من الصبر! فكل دار دمشقية تمثل جنة». ثم أخذ يصف دارًا تخص أحد تجار اليهود – ليس ثمة اختلاف بين بيوت الدمشقيين سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهودًا؛ بينما كانت الأخيرة متاحة بشكل أكبر لزيارة الرحالة الأجانب ووصفهم – من الداخل بانبهار قائلًا: «وكأن المشهد لحن لقصيدة شعر». ويلخص بوش هذه العلاقة بين داخل وخارج البيت الدمشقي بقوله: «لبّ ذهبي في صدفةٍ من الطّين».

وهكذا فقد كان المظهر الخارجي البسيط «الفقير» هو سمة البيوت الدمشقية إلى نهاية القرن الثامن عشر؛ حيث كُرِّس كل الجهد العمراني نحو الداخل للعناية به وزخرفته وجعله في أفضل صورة تحقق الراحة والسعادة لساكنيه. ويفسر البعض بساطة المظهر الخارجي للبيوت الدمشقية، باحتقار العرب الظهور بمظهر الغنى الزائل وحبهم لحياة مريحة داخل بيوتهم. وأعتقد أن تفسير ذلك هو البعد الاقتصادي في المقام الأول وليس تأثيرًا دينيًّا، على الأقل في دمشق فترة العصور الوسطى. يؤكد ذلك أن بيوت وقصور اليهود والمسيحيين على النسق نفسه. وثمة سبب آخر يمكن أخذه في الاعتبار وهو العامل الأمني، فالمظهر الفقير «الموحَّد» ذو الطابع العام لكل البيوت الثرية والمتوسطة والفقيرة يمثل عاملَ أمانٍ خاصة في هذه الفترة المعروفة بالفتن والقلاقل بين طوائف العسكر وما يتبعها من نهب الدور والبيوت. يضاف إلى ذلك سياق العصر؛ حيث طبيعة الفكر والطراز السائد في ذلك الوقت، فلم يكن من المألوف الاهتمام بالواجهات الخارجية.

فناء قسم السلاملك ببيت نظام بدمشق.

## التخطيط العام للبيت الدمشقي

إن الغرض الأساسي من أية منشأة سكنية يتمثل في السُكنى لأهل البيت، ويوضح ذلك ابن خلدون في مستهل كلامه عن صناعة البناء بقوله: «هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضري وأقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكنى والمأوى للأبدان في المدن، وذلك أن الإنسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله لا بد من أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها».

ومن ثم فالسكنى وتحقيق الأمن والأمان هو الغرض الوظيفي الرئيسي للمسكن، وتتبع عملية السكن توفير أماكن داخل المسكن للخدمة؛ مثل بيوت الخلاء وأماكن لطهي الطعام والقيام بالواجبات المنزلية من غسيل وتنظيف، وأماكن لتخزين المؤن من طعام وشراب ووقود وغير ذلك. كل ذلك أوجد فراغات في المسكن تعرف بالفراغات الخدمية. وبتطور الحياة والعلاقات الإنسانية تحدث عملية التزاور، مما استلزم وجود فراغات معمارية لاستقبال الزوّار وخدمتهم ومنامتهم.

وهكذا فإن الأغراض الوظيفية للمسكن تمثلت في ثلاثة أغراض رئيسة:

- السكنى لأهل البيت.
- التخديم على أهل البيت ويشمل تخزين المؤن.
- استقبال وضيافة زوّار أهل البيت.

ليس بالضرورة تخصيص فراغات معمارية مستقلة لكل غرض على حدة؛ حيث كان يلبي الفراغ الواحد هذه الأغراض جميعًا أحيانًا باختلاف الوقت وتغيير بعض مفردات الأثاث. ثم بتطور العمارة وبلوغ أسباب الرفاهية صارت في بيوت الأثرياء مساحة مستقلة لكل غرض وظيفي، وصارت عمارته تتسم بسمات تحقق الغرض الوظيفي المطلوب منها. وأخذت هذه الأقسام بتقدم الوقت مسميات تعبر عن الغرض الوظيفي منها، فصار يطلق على الفراغات المخصصة لاستقبال الضيوف «البراني» أو «السلاملك»، وقسم المعيشة والحياة الداخلية التي تخص نساء البيت – الحريم – أكثر، ومن ثم عرف بأسماء «الجواني» أو «الحرملك». وفي القصور والبيوت الكبيرة كان قسم التخديم يأخذ مساحة منفصلة وتعرف بـ «الخدملك». هذان المسميان (البراني، الجواني) من المصطلحات الوثائقية، بينما مسميات (سلاملك، حرملك، خدملك)؛ هي أسماء تركية تعكس مدى التأثير العثماني في توضيح وبلورة هذا التقسيم، وتصديره إلى الولايات العثمانية. أما في بيوت الطبقة المتوسطة والفقيرة فلا توجد هذه المسميات، ولا يتحقق الفصل الصريح بين الفراغات المعمارية حسب الغرض الوظيفي منها؛ حيث فإن الفراغ المعماري الواحد – كما سبق القول – كان يحقق أكثر من غرض وظيفي باختلاف الأوقات خلال اليوم الواحد وباختلاف الفصول خلال العام. فمثلًا الإيوان أو القاعة كان يُستخدم كلٌّ منهما كمكان للاستقبال والمعيشة نهارًا، وفي المساء تمد فيه الفرش والأغطية للنوم. ولكن غلب على المكان استخدامه للغرض الوظيفي الذي صُمِّم من أجله، وعلى أساسه تم تصميمه، وزخرفته، وموقعه من البيت، وطرق اتصاله بالفناء – مركز حياة الأسرة – مثل القاعة الكبرى للاستقبال.

وهكذا فإن أقسام البيت هي:

- القسم الأول: قسم استقبال الضيوف (البراني، السلاملك).
- القسم الثاني: قسم المعيشة والحريم (الجواني، الحرملك).
- القسم الثالث: قسم التخديم (الخدملك).

### القسم الأول: قسم استقبال الضيوف (البراني، السلاملك)

هو القسم المخصص لاستقبال الضيوف وهو إما أن يكون قسمًا تام البناء مستقلًا له فناء خاص به وفراغات معمارية؛ مثل قصر العظم وبيت نظام وبيت السباعي، أو أن يكون ممثلًا في فراغات معمارية متداخلة مع قسم المعيشة؛ مثل بيت جبري وبيت ستوت. ويكون قسم السلاملك – فراغات الاستقبال – قريبًا من مدخل البيت العام، ومتصلًا بأماكن الخدمة للتخديم عليه بسهولة؛ مثل القاعة الكبرى ببيت جبري، والقاعة الشمالية ببيت ستوت، أو يكون ملحقًا بها وحدات للخدمة – مطبخ صغير – كما في قصر العظم وبيت السباعي. وتكشف دراسة البيوت التاريخية الباقية بدمشق أن مساحة قسم السلاملك كانت تقريبًا ربع مساحة البيت ككل ونصف مساحة قسم الحرملك «المعيشة». ولا توجد فراغات معمارية تميز قسم السلاملك، وهو بصفة عامة أقل مساحةً وثراءً زخرفيًّا من قسم الحرملك.

### القسم الثاني: قسم المعيشة والحريم (الجواني، الحرملك)

هو قسم المعيشة وقسم الأسرة والنساء والأطفال، وهو جوهر حقيقة البيت، وأساس عمارته، وسبب بنائه، ومن ثم فهو أهم أقسام البيت، وأكثرها أهمية. ففي هذا القسم يكون سكنى أصحاب البيت، وحركة نساء البيت ونشاطهن ومركز أعمالهن، ومكان لعب الأطفال وتربيتهم ونشأتهم. وقد انعكس ذلك كله على عمارة وزخرفة هذا القسم فكان أكبر أقسام البيت مساحة، وأكثرها عناية بالعمارة والزخرفة. وتميز بالفناء ذي النافورة والأشجار المثمرة والفواحة؛ حتى يحقق غايته كونه متنفس أهل البيت، ومصدر راحتهم وسكنهم.

إيوان قسم الحرملك ببيت نظام بدمشق.

بينما يمكن الاستعاضة عن قسم السلاملك – كقسم مستقل – بقاعات الاستقبال، فالأمر مختلف بالنسبة لقسم الحرملك؛ فهو جوهر التخطيط، وهو إما أن يكون قسمًا مستقلًا كما في البيوت والقصور ذات المساحات الكبيرة والأفنية المتعددة؛ مثل قصر العظم وبيت نظام وبيت السباعي، وفي هذه الحالة تمثل مساحته تقريبًا نصف المساحة الإجمالية للمنشأة السكنية. وفي البيوت التي لا يتبللور فيها نظام الأقسام بوضوح فإن الفناء الرئيسي هو فناء للمعيشة؛ مثل بيت جبري، وبيت ستوت، وبيت السقا أميني. وفي هذه الحالة تزيد نسبة مساحة قسم المعيشة لتصل إلى ثلاثة أرباع المساحة الكلية للبيت.

عند وجود طابق ثانٍ فهو لخدمة المعيشة والنوم، ويكون الطابق الثاني عادة عبارة عن غرف متعددة متصلة عبر بعضها، أو يتقدمها رواق يشرف على الفناء من خلال درابزين خشبي كما في بيت السباعي أو نوافذ مثلما نجد في بيت نظام. ونجد الطابق الثاني بالجهتين الشرقية والغربية ويصعد إلى كلٍّ منهما بدرج في جهته؛ حيث إن الجهة الجنوبية يشغلها الإيوان بارتفاع طابقين غالبًا. ويقابله في الجهة الشمالية قاعة الاستقبال بارتفاع طابقين كذلك كما في بيت جبري وبيت ستوت وبيت نظام. ونادرًا ما يكون ارتفاع الإيوان بالجهة الجنوبية بارتفاع طابق واحد مما يسمح بوجود طابق ثانٍ يعلوه مثلما نجد بقسم السلاملك ببيت السباعي. وأحيانًا تكونً أيضًا القاعة الشمالية بارتفاع طابق واحد مما يسمح بوجود طابق ثانٍ يعلوه مثلما نجد في قسم الحرملك ببيت السباعي.

ومع كبر العائلة وكثرة أفرادها والحاجة إلى مساحات جديدة، فنجد إمكانية إضافة غرفة على سطح الطابق الثاني تعرف بـ«الطيارة»، أو تُشَيَّد غرف على ساباط يربط بين البيت وأحد بيوت الجيران كما بالواجهة الجنوبية لبيت السباعي، وسرايا إسماعيل العظم.

**القسم الثالث: قسم التخديم (الخدملك)**

في القصور والبيوت الكبيرة كانت تخصص مساحة مستقلة لقسم الخدم، وكانت ذات تخطيط مكتمل يتمثل في فناء أوسط سماوي تتوسطه بحرة ماء، وتحيط به فراغات معمارية تتمثل في مطابخ وحجرات لسكنى الخدم، وأسفل هذه الفراغات توجد أقبية لتخزين المؤن. ويكون غالبًا موقع هذا القسم في زاوية من البناء ككل، ويكون أقرب إلى قسم الحرملك وأسهل في الاتصال؛ حتى يحقق إشراف نساء البيت على أعمال الخدمة، وأبرز نموذج باقٍ نجده بقصر العظم بدمشق.

في المقابل تتوزع الفراغات الخدمية في الطابق الأرضي للبيوت التي لا يوجد فيها قسم خدمي مستقل. وتشغل تلك الفراغات الخدمية غالبًا زوايا الجهة الشمالية للبيت كما في بيت جبري وبيت ستوت؛ وهي أفضل مساحة لذلك لوجود الإيوان بالجهة الجنوبية والقاعة بالجهة الشمالية. ونجد المعماري الدمشقي يستغل دائمًا القاعات المرتفعة ليجعل القبو (بيت المؤونة) أسفلها نصف مدفون في الأرض.

قسم الحرملك ببيت خالد بك العظم بدمشق– أرضية داخل إحدى القاعات.

يلاحظ أن الفراغات الخدمية مزوية، ولا تنعكس على الواجهات الداخلية للفناء، وغالبًا ما يوجد مدخل خاص خارجي يؤدي إليها مباشرة؛ لتسهيل وسرية عملية التموين كما في بيت جبري، وبيت ستوت، وبيت نظام، وبيت السقا أميني، وبيت فارحي. ومن الفراغات التي يمكن إلحاقها بقسم التخديم – فضلًا عن المطابخ وبيوت المؤونة من أقبية ومستودعات – المداخل، والدهاليز، والسلالم، وبيوت الخلاء، وكذلك الحمامات إن وجدت.

## التكوين التصميمي والمعماري للبيت الدمشقي

الفراغ المعماري هو شكل له مساحة وأبعاد، وقد يكون الفراغ المعماري مكشوفًا سماويًّا؛ مثل الفناء أو مسقوفًا؛ مثل الإيوان والقاعات، ومجموع الفراغات المعمارية تكون التصميم الكلي للبيت. ويمكن وصف البيت الدمشقي ببساطة بأنه يتكون من فناء سماوي وإيوان وعدد من القاعات. يمثل العنصر المعماري وحدة زخرفية جمالية تأخذ طابعًا إنشائيًّا تبعًا لطبيعة مادتها الخام، وتكون غالبًا ذات فائدة وظيفية فضلًا عن دورها الجمالي والزخرفي؛ ومنها الفسقية، والمدفأة، والمصب (الشاذروان).

## الفناء (صحن الدار)

فناء البيت لغة ما امتد من جوانبه، أو ما اتسع من أمامه، ويعد الفناء من ملحقات البيت خارج البناء، أما داخل البناء فيطلق عليه الصحن، ويُعرَّف الفناء كذلك بأنه الساحة في البيت. هذا تعريف الفناء لغويًّا، ومن ثم فقد أطلق الفناء على الفراغ الخارجي الملحق بالبيت (الفناء الخارجي)، وأطلق كذلك على الفراغ السماوي وسط البيت فكان يقال الفناء الداخلي (الأوسط). ومن المفردات الدالة على هذا الفراغ أيضًا الصحن – الحوش – الباحة – الساحة – الدوار – العرصة. اُستخدم لفظ الفناء الداخلي هنا للتعبير عن هذا الفراغ المعماري وسط البيت؛ لإجماع معظم الدراسات والأبحاث على استخدامه، وعدم التباس دلالة معنى لفظ الفناء حاليًّا.

يُطلق على الفناء الداخلي في دمشق كذلك «الديار» و«أرض الديار»، كما تطلق عليه الدراسات الدمشقية «الباحة»، ويعرف في الوثائق الدمشقية بـ«الساحة» فيرد أحيانًا بصيغة «ساحة سماوية».

والفناء الداخلي هو بالتأكيد رئة البيت ومتنفسه الأوحد، ومركز الحياة والنشاط به. وقد ارتبط الفناء الداخلي بالسماء كونه فسحة سماوية، وبالأرض كونه فراغًا أرضيًّا، وبالنور كونه عاملاً مهمًّا منظمًا للنور في الفراغ المكشوف والمسقوف. وقد أعطت أفنية الدور التباين المطلوب في الكتلة المعمارية والشكل العام للمدن القديمة بالتكامل مع فراغات الشوارع والحارات – تمثل فراغًا عامًّا – وأكسبت المدينة التصميم المتزن بين المغلق والمفتوح، والمنتظم وغير المنتظم.

ويعكس الفناء الداخلي جوهر تخطيط البيت العربي بصفة عامة والدمشقي بصفة خاصة، والمتمثل في الانفتاح الكلي على الداخل، والانغلاق شبه التام تجاه الخارج. ويمثل الفناء في دمشق أكثر من أي بلد آخر المركز الحيوي للمنزل، فجميع المنازل تحوي فناءً داخليًّا واحدًا على الأقل. وللفناء دور غاية في الأهمية في المرور عبر فراغات البيت المختلفة، وتوزيع الخدمات، وتهوية القاعات والحجرات وإمدادها بالنور.

والدخول إلى الفناء في البيت الدمشقي يكون غالبًا جانبيًّا من إحدى زوايا الفناء. وذلك يسمح للداخل باستيعاب الفراغ بأبعاده الثلاثة، كما أنه يحقق قدرًا كبيرًا من الخصوصية بوضعه جانبيًّا أو مزويًّا؛ بحيث لا يتكشف الفناء كليًّا إلا من داخله.

ويلاحظ في البيت الدمشقي أن كل الفراغات المتمثلة في الإيوان والقاعات والحجرات مستقلة عن الأخرى، ومن ثم فهي غير متصلة ببعضها إلا عن طريق الفناء فقط؛ حيث يمثل الرابط الوحيد بين فراغات البيت.

إيوان فناء قسم السلاملك ببيت السباعي بدمشق.

ويأخذ الفناء في البيت الدمشقي مسقطًا مستطيلَ الشكل غالبًا، وقد يكون نادرًا مربعًا أو قريبًا من المربع، ويلاحظ اتجاه أضلاع الفناء مع الجهات الرئيسة الأربع، وأضلاع الفناء غالبًا منتظمة. وقد يكون هناك انكسار في إحدى الجهتين الجانبيتين الشرقية أو الغربية أو كلتيهما، ومن ثم فإن ضلعين من أضلاع الفناء على الأقل يكونا مستقيمَين منتظمَين؛ وهما في الأغلب الجهتان الجنوبية والشمالية.

ويحيط بالفناء فراغات معمارية «وحدات سكنية» من الجهات الأربع غالبًا، ويحدد ذلك المساحة المتاحة؛ حيث تفرض المساحة أحيانًا بعدم توافر كتل سكنية في إحدى الجهتين الجانبيتين مثلما نجد بالجهة الشرقية لفناء القسم الأوسط في بيت نظام؛ حيث تمثل حدًّا فاصلاً بين الفناء والشارع.

وتميزت واجهات الفناء أو الواجهات الداخلية للبيت بثرائها وزخارفها وكثرة فتحاتها لتؤكد على التباين القوي بين خارج وداخل البيت الدمشقي. فالواجهات الداخلية للفناء – واجهات الفراغات المعمارية التي تفتح عليه – اتسمت بالانتظام وكسوتها بكسوة حجرية بنظام المشهر من الحجر المزي الأبيض والأصفر مع الحجر البركاني الأسود في مداميك منتظمة إلى منتصف ارتفاع الواجهة تقريبًا. والنصف الثاني (العلوي) من الواجهات مغطى بكلسة جيرية بيضاء تعمل على راحة العين، وتعكس بصدق البنية الإنشائية للجدران. وقد تُكسى الواجهة كلها بالحجر مثل الواجهة الشمالية ببيت جبري، والواجهة الجنوبية بقسم الحرملك بقصر العظم. وتقطع هذه الواجهات فتحات أبواب القاعات والحجرات وفتحة الإيوان الرئيسي بالجهة الجنوبية. كما تزين أحيانًا بدخلات جدارية مستغلة سماكة الجدران، وكذلك بعض الكوات لتوضع فيها أدوات الإضاءة، وتعرف هذه الكوات في دمشق بالمشكاوات.

فناء بيت جبري بدمشق.

يتوقف امتداد الفناء شمال جنوب، أو شرق غرب بحسب مساحة البناء وشكل المسقط، ورغبة المنشئ في بناء فراغات سكنية في المساحات الجانبية أم لا. وبصفة عامة للفناء أربع واجهات هي على الترتيب حسب الأهمية: الواجهة الجنوبية، الواجهة الشمالية، الواجهتان الجانبيتان (الشرقية، الغربية).

تتميز الواجهة الجنوبية لفناء البيت الدمشقي بثبات تخطيطها إلى درجة كبيرة؛ حيث تحوي الفراغ المعماري الثابت في البيت الدمشقي وهو الإيوان، وبالتالي ترتفع الواجهة الجنوبية بارتفاع طابقين وهو ارتفاع فتحة الإيوان حوالي ٩ أمتار. إذا كان الضلع الطويل للفناء يمتد شمال جنوب، فتكون الواجهة الجنوبية تمثل الضلع القصير للفناء، ومن ثم فتكون مشغولة كليًّا بتكوين الإيوان؛ حيث تشغل فتحته أكثر من ثلثي مساحتها بكامل ارتفاعها، وتشرف القاعتان على جانبي الإيوان على الفناء من خلال نوافذ. النوافذ تأتي في مستويين على نفس المحور الطولي:

النوافذ السفلية مستطيلة تنتهي بعقود موتورة ومزخرفة، والنوافذ العليا مستطيلة دون إطار، وأحيانًا داخل إطار من الجص المزين. وإذا كانت هناك غرف تعلو القاعتين على جانبي الإيوان، فهي تمثل طابقًا ثانيًا، وتشرف على الفناء بواسطة نوافذ كذلك، كما هو بالواجهة الجنوبية لفناء بيت جبري، والواجهة الجنوبية لقسم السلاملك بقصر العظم، والواجهة الجنوبية لبيت ستوت (القسم الغربي من بيت نظام)، والواجهة الجنوبية للقسم الشمالي من بيت نظام.

أما إذا كان الضلع الطويل للفناء يمتد شرق غرب مثل قسم الحرملك بقصر العظم، والقسم الأوسط لبيت نظام، وقسم الحرملك ببيت السباعي، وقسم الحرملك ببيت خالد العظم، فنجد الإيوان يمثل قسمًا لا يتجاوز نصف الواجهة الجنوبية ويشغل أحد جانبيها الشرقي أو الغربي، بينما النصف الثاني تشغله واجهة قاعات أخرى.

وهذه الواجهة تُكسَى بالحجر المشهر من الأرض إلى ارتفاع أربعة أمتار تقريبًا (منتصف ارتفاعها تقريبًا)، وكذلك عقد الإيوان بالحجر المشهر، وبقية الواجهة مطلية بكلسة بيضاء.

الواجهة الشمالية ترتفع بارتفاع طابقين غالبًا؛ لكي تأخذ شمس الجنوب، وتكون ذات نظام معين بإيقاع واحد فتظهر كواجهة متكاملة من أسفل إلى أعلى، وتشغلها بصفة رئيسية قاعة تقابل الإيوان، وتمثل غالبًا قاعة استقبال (القاعة الكبرى) بالبيت. كما تشغل كامل الواجهة الشمالية للفناء إذا كانت تمثل الضلع القصير للفناء؛ مثل الجهة الشمالية ببيت جبري، والجهة الشمالية بقسم السلاملك بقصر العظم.

أما إذا كانت الواجهة الشمالية تمثل الضلع الطويل للفناء، فنجد القاعة تقابل الإيوان، وباقي الواجهة يمثل واجهة قاعة أخرى أو رواقًا أو فراغات مختلفة؛ مثل الواجهة الشمالية لقسم الحرملك بقصر العظم، ونظيرتها بالقسم الأوسط ببيت نظام، ونظيرتها بقسم الحرملك ببيت السباعي، ومثيلتها بقسم الحرملك ببيت خالد بك العظم. وترتيب الأبواب والنوافذ للقاعات منتظم هندسيًّا أي يحمل نفس الارتفاع، ولذلك كان يوضع أحيانًا نافذة أعلى الباب تعرف بـ «المندلون» تشغل المساحة التي تعلو فتحة الباب، ويتفاوت حجمها، وتتميز بأنها نافذة مزدوجة الفتحة، وتنتهي كلٌّ من فتحتيها بعقد ثلاثي. ونادرًا ما تكون الواجهة الشمالية غير مشغولة بفراغات معمارية، أي تمثل جدارًا فاصلًا فقط؛ مثل الواجهة الشمالية بالقسم الشمالي لبيت نظام، ونادرًا ما نجد سلالم بالواجهتين الجنوبية والشمالية.

قاعة بقسم الحرملك ببيت نظام بدمشق.

أما الواجهتان الجانبيتان (الشرقية والغربية)؛ فالواجهة الشرقية تلي الواجهة الشمالية في الأهمية، وغالبًا ما تكون لطابقين وتحمل نفس نظام الفتحات. وفي حالة وجود رواق، فإنه يكون خلفيًّا أو أماميًّا مكشوفًا؛ بحيث لا يحجب الضوء والشمس؛ مثل الواجهة الشرقية بكلٍّ من بيت جبري وقسمي السلاملك والحرملك ببيت السباعي. والطابق الثاني بالجهتين الجانبيتين بصفة عامة تشغله غرف بسيطة غفل من الزخرفة مطلية جدرانها بكلسة بيضاء تستخدم للنوم، ويتم الوصول إليها من خلال سلم بنفس الجهة بالطابق الأرضي.

كما يحتوي الفناء على بعض العناصر المكملة والتي تعزز أداء وظائفه بكفاءة، وتتمثل في الفسقية، والمصطبة، والمزروعات. فالفسقية (أو البحرة) تمثل حوضًا مبنيًّا من الحجر ويُكسى بطبقة من الملاط أو الرخام، يكون في وسط الحوض نافورة ماء عالية (كأس رخامية غالبًا) يتدفق منها الماء بداخل الفسقية. وقد يكون على طرفها رأس سبع أو اثنين من النحاس يندفع منهما الماء لداخل الفسقية. وتكون الفسقية على محور الإيوان وتتوسط الفناء، ولا يشترط أن تقع في مركز الفناء، وقد يكون بالفناء أكثر من بحرة أو فسقية إذا كان الفناء كبيرًا، فتتقدم واحدة الإيوان، والثانية تتقدم مدخل القاعة الكبرى. ووجود فسقية تتقدم مدخل إحدى القاعات يدلل على أهمية هذه القاعة مثلما يوجد في بيت جبري؛ حيث توجد فسقية مضلعة على محور الإيوان. وبقسم السلاملك بقصر العظم يوجد حوض ماء حجري كبير مستطيل يتوسط الفناء على محور الإيوان، وببيت نظام بأقسامه الثلاثة، وفي بيت السباعي قسم السلاملك. وكذلك توجد فسقية مضلعة من الرخام تتوسط الفناء على محور مدخل القاعة الكبرى لبيت السباعي، وكذلك ببيت نظام بالقسم الأوسط توجد فسقية مضلعة من الرخام على محور الإيوان، وفسقية رخامية صغيرة تتقدم مدخل قاعة العنب، تعويضًا على عدم احتواء القاعة على فسقية بداخلها، وللدلالة على أهميتها كذلك.

وتصميم الفسقية وإنشاؤها بين البساطة والتعقيد أو التكلف يعكس – فضلًا عن الشكل الجمالي والدور الوظيفي لها كمصدر مياه – تباين القدرة المادية لأصحاب البيت. ويمكن إدراك مثل هذا الأمر بتحليل كثير من العناصر المعمارية والزخرفية في البيت الدمشقي وخاصة الزخارف.

تُبنى الفسقية من الحجر وقد تُكسَى بالوزرات الرخامية وتُشكَّل برسومات هندسية بألوان مختلفة، والفسقية قد تكون مثل البحرة، وغالبًا ما تكون بالكامل من الرخام، وفي الفترات المتأخرة (الحديثة) صارت تُكسَى ببلاطات الخزف. وتطلق الوثائق الدمشقية على فسقية الفناء «بركة ماء» و«بركة ماء ناهدة» و«مصنع ماء»، بينما أطلق على الفسقية داخل القاعات «فسقية» و«بركة ماء».

أما المصطبة فهي البناء المرتفع قليلاً للجلوس، وتقال بالسين والصاد، والأخيرة فيها أبلغ. وتُعرف أيضًا بالدكة. وتوجد المصطبة في فناء البيت الدمشقي، وتُعرف حديثًا بمنصة الموسيقيين، وهي غالبًا تتقدم سلم القاعة الكبرى ذا الطرفين؛ بحيث تكون بطول مسقط طرفي السلم والبسطة المحصورة بينهما، ويحيط بها درابزين يمثل امتدادًا لطرفي درابزين السلم، كما في قسم الحرملك بقصر العظم، وبيت السقا أميني. وأطلقت الوثائق على هذه المصطبة مصطلح مقعد فيرد: «فالبراني يدخل إليه من باب إلى حوش سماوي به مقعد لطيف بدرابزين ومصنع ماء يجري إليه الماء وإلى بقية حقوق». وجدير بالذكر أن مصطلح مصطبة ورد في وثائق مدينة حلب بمعنى مغاير تمامًا؛ حيث أشار إلى الإيوان.

المزروعات، وهي تمثل جزءًا أساسيًّا مكملًا لشكل ومضمون وظيفة الفناء. وجاءت المزروعات في البيوت الدمشقية على نمطين: أن تكون مساحة كبيرة تتخلل الفناء ويطلق عليها جنينة، أو أن تكون أحواض زرع بمحاذاة واجهات الفناء، وحول الفسقية. ويحدد هذه الأحواض مدماك حجري، أو درابزين خشبي. وقد احتوت القصور الكبيرة على النمطين معًا، بينما اقتصرت معظم البيوت على النمط الثاني، وكانت نوعية المزروعات تتمثل في أشجار الحمضيات والفواكه من ليمون وبرتقال ونارنج وسفرجل، ونباتات الزينة من ياسمين وفل وغيرها.

وكانت المزروعات ترد في الوثائق ضمن وصف مكونات ومحتويات الدار، فيرد في الوثائق الدمشقية: «وحوضين متقابلين بهما أشجار حمض وتجاه الحوضين غراس فواكه وغيرها»، و«وحوض بدرابزين من الأخشاب به أشجار فواكه وغيرها»، و«بها جنينة تشتمل على غراسات أشجار فواكه منوعة»، و«ساحة سماوية كبيرة بها جنينتين شرقية وغربية بهما غراس حمض وغيره».

وجاء في وصف مزورعات قصر العظم (محمد خليل بك العظم: الدرر البهية): «تلك الجنينة بالزرايع المفتخرة والمشجرات والورود والزهور... مغرس من أصناف الزرايع من ياسمين بلدي وعراتيلي وغبر وفل ومن الزرايع منعشة الرائحة جميلة المنظر».

## الإيوان (الليوان)

الإيوان كلمة فارسية تعني لغويًّا قاعة العرش. والإيوان يمثل فراغًا معماريًّا مسقوفًا محددًا بجدار من ثلاث جهات ويفتح على الجهة الرابعة بشكل كامل. وفي البيت الدمشقي يشرف على الفناء باتجاه الشمال بكامل اتساعه بواسطة عقد مدبب.

ويعرف الإيوان في دمشق باسم «الليوان»، ويمثل الإيوان في البيت الدمشقي الفراغ الوسيط بين الفراغ المكشوف السماوي (الفناء) والفراغ المغلق (القاعة)؛ حيث يفتح الإيوان فقط من جهة الشمال بكامل اتساعه باتجاه الفناء، وهو عنصر رئيسي في البيت الدمشقي، ونادرًا ما يوجد منزل بدون إيوان.

والإيوان من أهم العناصر المكملة للفناء في البيت الدمشقي، ويدلل المعمار على أهمية هذا الفراغ الثابت في تخطيط البيت الدمشقي من خلال أرضية الفناء أمامه، فيجعلها بالرخام الملون داخل أشكال هندسية متعددة متميزة عن بقية أرضية الفناء الحجرية. والإيوان يميز الواجهة الجنوبية للفناء، ويكون موقع الإيوان منها حسب امتداد الفناء، فإذا كان امتداد الفناء شمال جنوب، فيتوسط الإيوان الواجهة ويشغل معظم مساحتها (الثلثين أو أكثر)؛ مثل بيت جبري وبيت السقا أميني وبيت نظام ستوت، والسلاملك ببيت السباعي والسلاملك بقصر العظم. وإذا كان امتداد الفناء (الضلع الطويل للمستطيل) شرق غرب، فيشغل الإيوان نصف الواجهة الجنوبي الشرقي أو الغربي تبعًا للفراغات التي تشغل جانبي الإيوان والفراغات المقابلة بالجهة الشمالية؛ كما في القسم الأوسط ببيت نظام، وقسم الحرملك ببيت السباعي، وقسم الحرملك بقصر العظم.

والإيوان مخصص كفراغ للاستقبال صيفًا، ويقع دائمًا بالجهة الجنوبية من الفناء، ويفتح عليه من خلال عقد مدبب. ومسقط الفناء غالبًا مربع أو قريب من المربع؛ بحيث تساوي فتحة عقد الإيوان عمقه، ويرتفع بارتفاع طابقين حوالي ٩ أمتار؛ حيث لا تعلوه أية مبانٍ أخرى، باستثناء إيوان قسم السلاملك ببيت السباعي، والذي جاء بارتفاع طابق واحد، ويفتح على الفناء من خلال عقد موتور، وتعلوه حجرات. وهكذا فتواجد الإيوان وموقعه ومساحته بمثابة نموذج ثابت متكرر في البيوت الدمشقية.

وتكوين الإيوان في الغالب يكون على كلٍّ من جانبيه قاعة (أو حجرة استقبال) يتوصل إليهما من داخل الإيوان. وتكون مساحة هذه القاعات بحسب المساحة العامة للجزء الجنوبي من البيت، وعلى أساسها كذلك يكون امتداد القاعة إما موازيًا للإيوان (أي جنوب شمال) أو عموديًّا عليه (أي شرق غرب)، وذلك ينسحب أيضًا على تخطيطها.

أما أرضية الإيوان فهي إما أن تكون بنفس منسوب أرضية الفناء أو ترتفع عنها بمقدار لا يتجاوز ١٠سم، وقد تكون الأرضية كلها بمستوى واحد ومفروشة بالرخام، أو الرخام والحجر، وقد تنقسم الأرضية لمستويين؛ الأول يمثل ممشى أو استطراقًا بعرض ٨٠-١٠٠سم. ويوصل هذا الاستطراق بين بابي القاعتين على جانبي الإيوان، ويعرف هذا الاستطراق بـ «الدكة»، وتتألف من «السماط» و«الشعيرة». السماط يمثل الاستطراق، والشعيرة تمثل أطروفية الاستطراق أو واجهة درجة ارتفاع الإيوان، وتكون الأطروفية بارتفاع لا يتجاوز ٤٠ سم، وغالبًا تزخرف بالرخام الخردة.

وإذا كان الإيوان على حالته الأصلية وتؤثر فيه أعمال التغيير والترميم، فنجد - خاصة في القرن الثامن عشر - مصاطب بمحاذاة جدران الإيوان الثلاثة، مما يلي الجزء الذي يصل بين بابي القاعتين الجانبيتين، وتمثل مقاعد للمجلس، وتُكسى هذه المصاطب بوزرات رخامية وتُزين بالرخام الخردة متعدد الألوان، وتُفرش بالتكايا والآرائك للجلوس؛ كما في إيواني القسمين الأوسط والشمالي في بيت نظام.

وأرضية الإيوان بصفة عامة تُكسى بالرخام، وقد يتوسطها فسقية رخامية؛ مثل فساقي القاعات مثلما كان يوجد بإيوان السلاملك بقصر العظم، وأحيانًا على شكل جرن صغير في عمق أرضية الإيوان؛ مثل إيوان الحرملك بقصر العظم. والغرض منها على أي صورة ترطيب الجو في الصيف، وتمثيل الطبيعة مضافة إلى الزروع والأشجار بالفناء.

والإيوان في البيت الدمشقي يقوم بدور المقعد في البيت القاهري، فكلاهما مكان للاستقبال صيفًا، وكلاهما يفتح باتجاه الشمال لنفس الغرض وهو استقبال الهواء الشمالي المنعش المتجدد، وتخطيط كلا الفراغين يتمثل في مكان للاستقبال له ثلاثة جوانب ويفتح من الجهة الرابعة على الفناء. والاختلاف أن الإيوان الدمشقي يفتح على الفناء بكامل اتساعه من خلال عقد واحد غالبًا ما يكون مدببًا، بينما يفتح المقعد من خلال عقد أو ثلاثة حسب المساحة. يقع الإيوان الدمشقي في الطابق الأرضي، أما المقعد القاهري فيكون بالطابق الأول.

## القاعة

القاعة تلي الفناء والإيوان في الأهمية؛ من حيث الوجود في تخطيط البيت الدمشقي. والقاعة تشمل هنا جميع الحجرات التي يمكن تعريفها بأنها حجرات إقامة أو معيشة؛ حيث تشكل هذه الحجرات مجملَ مساحة البيت في الطابق الأرضي بعد الفناء والإيوان، وكذلك المطبخ والحمام في حالة وجودهما. هذه الحجرات لها شكل متشابه، واستخدام هذه الحجرات يعكس مرونة تخطيط البيت الدمشقي من جهة، وطبيعة الحياة في ذلك العصر من جهة ثانية، فلم يكن آنذاك الفراغ المعماري مقيدًا بغرض وظيفي واحد؛ مثل حجرات نوم أو حجرات للطعام أو حجرة مكتب أو حجرة استقبال. بل كان نفس الفراغ الواحد يقوم بهذه الوظائف جميعًا حسب رغبة صاحب البيت. فالقاعة الواحدة تمثل حجرة استقبال، وعند تناول الطعام توضع صينية الطعام على حامل (كرسي)، فتصير حجرة للطعام، ثم ترفع الصينية بعد تناول الطعام، وفي المساء تمد فيها الفرش، فتصبح حجرة للنوم، ثم يُطوى الفرش ويُخزَّن في صباح اليوم التالي.

ومن ثم فاستخدام هذه الحجرات أو القاعات يتحدد عن طريق عدة عوامل؛ أهمها:

- أوقات اليوم المختلفة (صباح - ظهر - مساء) ومتطلبات ومهام كل وقت.
- فصول السنة المختلفة (صيف - شتاء).
- المستوى الاجتماعي للزائرين (أغراب - أقارب - أصحاب)، ودرجة أهميتهم وفقًا لصاحب البيت.

فمثلاً تستخدم الحجرات في الصباح بصفة عامة للاستقبال، وفي فترة الظهيرة لتناول الغذاء، وفي المساء للمعيشة كمكان لجلسة عائلية يجتمع فيها أفراد الأسرة يتبادلون الحديث، وفي الليل للنوم.

أما الفصل فيُحدد أماكن الحجرات واستخدامها بحسب تأثير المناخ؛ ففي الصيف حيث الحرارة العالية تستخدم القاعات الكبيرة المرتفعة التي تحوي فسقية يتدفق منها الماء لترطيب المكان، وفي الشتاء يتم اختيار الحجرات والقاعات صغيرة المساحة، والتي قد تكون تحوي مدفأة لتدفئتها، أو اختيار الحجرات العلوية المعرضة للشمس.

وكذلك يتحدد استخدام القاعات والحجرات عن طريق الأشخاص الزائرين ودرجة أهميتهم عند صاحب الدار، ومن ثم مقدار ما يريد تقديمه من حفاوة بهم أو تباهٍ أمامهم فمثلاً تُخصص القاعة الكبرى ذات التخطيط المتسع والزخرفة الثرية للحفلات الكبيرة واستقبال المجموعات، وتُخصص القاعة الثانوية للحفلات الأكثر خصوصية أو العائلية أو الزيارات الفردية.

سقف القاعة الكبرى بقسم الحرملك ببيت السباعي بدمشق.

سقف دورقاعة القاعة الكبرى ببيت جبري بدمشق.

وتخطيط الحجرات والقاعات في البيت الدمشقي يمكن حصره في ستة نماذج؛ وهي:

١- حجرة (قاعة) مربعة أو مستطيلة قريبة من المربع (تعرف بالمربع).
٢- قاعة تتكون من استطراق وإيوان.
٣- قاعة تتكون من دورقاعة وإيوان.
٤- قاعة تتكون من دورقاعة وإيوان وسدلة.
٥- قاعة تتكون من دورقاعة وإيوانين.
٦- قاعة تتكون من دورقاعة وثلاثة أواوين.

تعد القاعة المكونة من دورقاعة وثلاثة أواوين أكثر القاعات تمييزًا في تخطيطها والذي يمثل حرف T، وتقترن عادة باسم القاعة الكبرى. ويتمثل هذا النموذج في القاعة الكبرى الشمالية ببيت جبري، والقاعة الكبرى الجنوبية بقسم الحرملك بقصر العظم، والقاعة الجنوبية للجهة الشرقية بقسم الحرملك بقصر العظم، والقاعة الشمالية بقسم الحرملك ببيت خالد العظم. وتعد القاعة الكبرى بقصر العظم بحماة من أروع وأكثر نماذجها تميزًا خارج دمشق.

مفهوم القاعة الكبرى يمثل أوسع قاعات البيت وأفخمها، وتكون عادة غير القاعتين على جانبي الإيوان، ولا يوجد تخطيط ثابت للقاعة الكبرى؛ فنجدها دورقاعة وثلاثة أواوين في بيت جبري، ونفس التخطيط بقصر العظم، ودورقاعة وإيوان واحد ببيت نظام بالقسم الأوسط، ودورقاعة وإيوانين بقسم الحرملك ببيت السباعي. ومن ثم فهي تمثل قاعة متزنة التخطيط؛ حيث النسب المعمارية، والثراء الزخرفي الذي يصل لحد البذخ والإفراط مقارنة بفراغات البيت الأخرى.

جدير بالذكر أنه لا يميز القاعة الكبرى تخطيط ثابت، فلا يميزها كذلك موقع ثابت، فنجدها بالجهة الشمالية ببيت جبري، وبالجهة الجنوبية بقصر العظم، وبالجهة الغربية ببيت السباعي، وبالجهة الشرقية ببيت خالد العظم. وغالبًا ما تكون القاعة الكبرى معلقة؛ حيث يتم الوصول إلى بابها من خلال سلم ذي طرفين يتوسط واجهتها، ويقود إلى بسطة تتقدم المدخل. ويتم بناء القاعة بهذه الكيفية لاستغلال أسفلها لعمل قبو نصف مدفون يستخدم كبيت مؤن بالبيت الدمشقي، وهذا ينطبق على النماذج الأربعة سالفة الذكر.

تمثل الأبواب والمداخل والغرف والممرات السرية أطرف ما تحوي الدور العربية بصفة عامة، وقد شغف أصحاب البيوت بمثل هذه الأمور. وتوجد مثل هذه المداخل والغرف السرية في البيت الدمشقي عادة في القاعات الكبرى، فنجد ضمن الكسوة الخشبية بابًا يماثل باب الخزانة، ويصعب تمييزه من بين أبواب الخزانات الأخرى، وهو يمثل مدخلًا لحجرة صغيرة تستخدم لأغراض عدة؛ منها استجمام الضيف، أو حفظ أشياء غير مرغوب في رؤيتها؛ مثل الفرش وأدوات الخدمة وغير ذلك؛ ومثال لتلك الغرفة يوجد بالقاعة الكبرى بقصر العظم، والقاعة الغربية بقسم الحرملك ببيت السباعي.

وقد يقود الباب لغرفة خلفية صغيرة، وقد تحوي درجًا صاعدًا يوصل لغرفة علوية، أو يقود لمدخل ثانوي للبيت؛ مثل الحجرات الخلفية بقصر العظم خلف القاعتين على جانبي الإيوان بقسم الحرملك، وقاعات الجهة الشرقية بالقسم نفسه.

والأصل في هذه الممرات أو الأبواب السرية هي فكرة سيطرت على أصحاب البيوت الكبيرة في تلك الفترة وهي التخديم غير المرئي على الضيوف بالقاعات. ويبدو أن هذه الفكرة أُغرَم بها الدمشقيون منذ عهود بعيدة، فنجد بابًا ضمن القاعة يماثل أبواب الخزانات ولا يتميز عنها يقود إلى ممر يوصل إلى قسم الخدم؛ حيث يقبع الخادم خلف هذا الباب لتلبية طلبات صاحب الدار وضيوفه ونقل صنوف الطعام والشراب دون إحساس الضيوف بحركة التخديم. ونرى هذا النموذج واضحًا بالقاعة الكبرى ببيت جبري. والغرض كما ذكرت هو التخديم على القاعة دون المرور بالفناء أو الدخول من باب القاعة الذي يدخل منه الضيوف.

## الكسوة الخشبية (الحلقة)

الكسوة الخشبية الدمشقية والتي تعرف بالحلقة الخشبية؛ لأنها تكسو جدران الإيوان أو القاعة بشكل حلقة من ثلاث جهات، وهي أكثر ما يميز قاعات البيت الدمشقي. وقد ورد هذا المصطلح في الوثائق الدمشقية في وصف القاعات فيرد: «وبكلٍّ من الإيوانين حلقة والدفوف المدهونة وعدة قماري وبالإيوانين أربع خراستين ويوك وثلاث كتابي»، و«يعلو الأوده قصر مسقف بطوان عجمي مستديرة بحلقة وخراستين وكتابي».

وتجلد الحلقة جدران الإيوان وتكون بارتفاع ٢,٥٠-٣ أمتار، وتحوي فتحات النوافذ والكتبيات والخزانات، وتتسم بالتماثل والسيمترية سواء في توزيع فتحات النوافذ تجاه الفناء وما يقابلها من خزانات وكتبيات داخل القاعة، أو في الزخارف والحشوات. وتعلو النوافذ والخزانات والكتبيات حشوات مستطيلة بارزة بشكل عقد موتور من أسفل وعقد مستقيم من أعلى لتمثل حشوة انتقالية بين العقود الموتورة المتوجة لفتحات النوافذ والخزانات والكتبيات وبين الحشوات الكتابية المستطيلة.

والحشوات الكتابية تعلو هذه الحشوات الانتقالية، ومكتوب عليها بخط الثلث المذهب البارز على أرضية داكنة أشعار تمثل معظمها قصائد البوصيري (البردة والهمزية) في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، وتنتهي الحشوة الأخيرة عادة بتاريخ صناعة الكسوة. وتنتهي الكسوة عادة من أعلى بطنف بارز مزخرف بزخارف هندسية ونباتية. وتزين المساحات بين النوافذ والخزانات والكتبيات أشرطة طولية زخرفية مزخرفة بعناصر نباتية وزهرية.

وتميزت الكسوة الخشبية التي تعود للقرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي بالإتقان، ودقة الصناعة، وعدم البهرجة أو الإفراط سواء في استخدام الألوان أو الزخرفة، وتضفي الكسوة الخشبية دفئًا على المكان. بينما في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي بالَغَ الفنانون صانعو الحلقات الخشبية في تزيينها واستعمال المرايا والألوان الصارخة المذهبة. وإن كان مثل هذا الأسلوب في الزخرفة المتأثر بفن الركوكو والباروك يُدهش الرائي للوهلة الأولى ويجذب بصره، فإنه لا يترك أثرًا عميقًا، على عكس الكسوة الخشبية الرصينة والتي تزداد قيمتها بمرور الوقت.

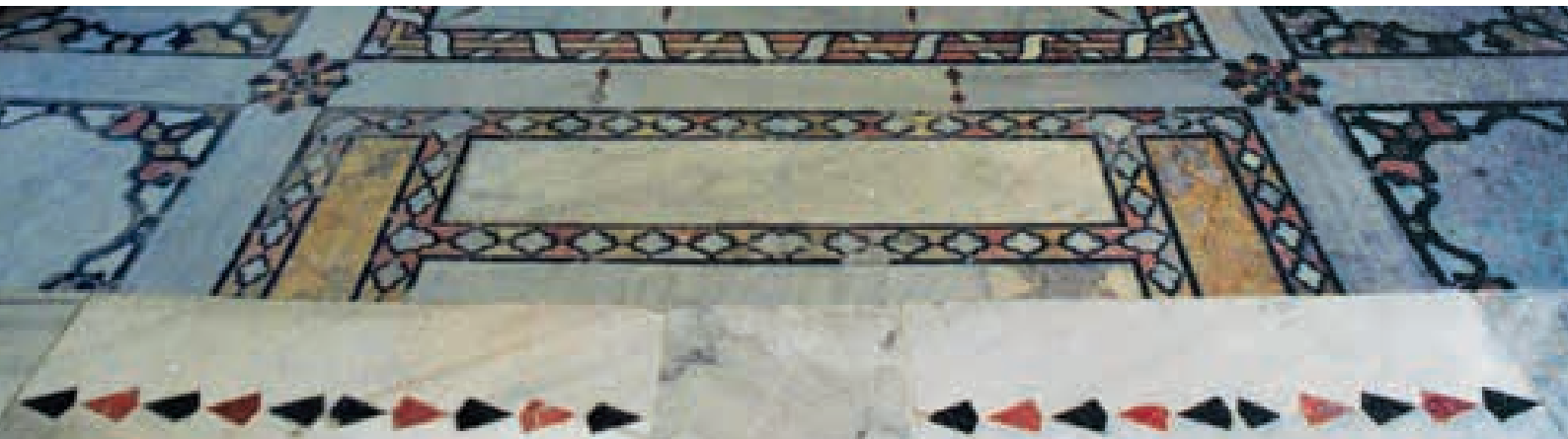

# وقف

بسم الله الرحمن الرحيم وقف وحبس وسبل وابد العبد الفقير الى الله تعالى
حصن المسلمين ملجأ القاصدين ابو سعد سيف الدين ركن بن عبد الله الشافعي الملكي الناصري بعده الله تعالى الفضل العظيم
جميع هذه الربعة الشريفة وعدتها ثلثون جزءا على كافة المسلمين ينتفعون بذلك في القراءة والنقل
والمطالعة والدراسة وشرط الواقف للذكور ان هذه الربعة المذكورة لا تخرج من الذرية المذكورة ولا تعار ولا تخرج الا
للاصلاح وجعل النظر في ذلك لنفسه طول حياته ثم من بعده للذرية الارشد فالارشد وذريته ذرية فاذا انقرض
الذرية ولم يبق منهم احد يكون النظر للشيخ المقيم بالتربة المذكورة يجري الحال في ذلك كذلك ما ابقى الله الارض
ومن عليها وهو خير الوارثين فمن بدل ما شرطه فانما اثمه على الذين يبدلونه
ان الله سميع عليم وقع اجر هذا الواقف على الله عز وجل الذي لا يضيع اجر من احسن عملا وذلك سابع
من شهر جمادى الاخرة سنة ست وستين وسبعمائة